

126019 - كلمات وأمثال فيها اعتراض على أفعال الله وطعن في حكمته وعدله

السؤال

لماذا ربنا يعطي الذي ليس محتاجاً ، والمح الحاج لحاجه لا تأتي له ؟ .

الإجابة المفصلة

أولاً:

أمر الله تعالى بحفظ اللسان ، وأن لا يتكلم العبد بالكلمة إلا وهو يعلم أنه ليس فيها إثم ، وأخبرنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه الناس يكعون في جهنم بحصائر ألسنتهم ، وما أكثر ما يخترع الناس أمثلاً ، أو تجري ألسنتهم بكلمات تكون فيها مهلكتهم ، إن لم يتداركهم ربهم تعالى برحمته .

وإن العبد الموفق ليتكلّم بالكلمة لا يلقي لها بالاً لثيبيه الله عليها أعظم الثواب ، وإن العبد المخذول ليتكلّم بالكلمة لا يظن أنها تبلغ به شيئاً تهوي به في نار جهنم .

قال تعالى : (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ق / 18 .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلُّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلُّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخْطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهُوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) .

رواه البخاري (6113) .

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحِينَهِ وَمَا بَيْنَ رِجَائِهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ) .

رواه البخاري (6109) .

وقال بعض السلف : " ما على وجه الأرض شيء أحوج إلى طول حبس من اللسان " ! .

ثانياً:

مثل هذا الكلام القبيح يدرج في أمثال بعض البلاد ، وتتناقله الألسن ، دون أن يعي أحدthem أنه وقع بقوله في مخالفات شرعية ، تتعلق بصفات الله تعالى ، وأسمائه ، وأفعاله ، ففي هذا القول الوارد في السؤال اعتراض على أفعال الله تعالى ، وتقديراته ، وعلمه ، وحكمته ، وعدله .

ومن تلك الأمثال الدارجة ”يعطي الحلق للذي ليس له أذن !“ و ”يعطي اللحم للذي ليس له أسنان“ ، ويعنون به : الله تعالى .

وفي هذا الكلام ما لا يخفى من سوء الأدب مع الله تعالى ، وسوء الظن به ، فيقال فيه :

1. في كلام السوء هذا يعني أن الله تعالى أعطى النعمة من لا يستحقها ، وأن هناك من هو أولى بهذه النعمة من هذا المُعطى ! وهذا من أعظم الطعن في حكمة الله ، وعدله .

وليس أحدٌ في غنى عن فضل الله وعطائه ، وقد قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْثُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) فاطر/ 15.

والله تعالى يقدر ما يشاء لحكم جليلة ، فمن أغناه الله فلحكم ، ومن أفسره الله فلحكم ، فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لحكم ، قال تعالى : (وَإِنْ خَفْتُمْ عَيْلَةً فَسُوفَ يُغْيِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) التوبة/من الآية 28 ، وقال تعالى : (فَضْلًا مَنِ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) الحجرات/ 8 .

ولله خزائن السموات والأرض ، وما يهبه تعالى لخلقـه : فهو بقدر معلوم ، قال تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَرَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرٍ مَعْلُومٍ) الحجر/ 21 .

2. وما يظنه الإنسان القاصر في فهمه وإدراكه أن الخير له هو في غناه ، وسلطانه ، وجاهـه : خطأ ، وقصور ، يتـناسب مع طبيعة الإنسان القاصرة ، فقد يكونـ الخـير في نزعـ تلك الأشيـاء منهـ ، كما قد يكونـ الذـلـ خـيراً لـه ! نـعـمـ ، فـلـربـما ذـلـهـ قـادـهـ إـلـى إـسـلاـمـ بـعـدـ كـفـرـ ، أو طـاعـةـ بـعـدـ مـعـصـيـةـ ، كـمـاـ أـنـ الـمـالـ ، وـالـمـلـكـ ، وـالـجـاهـ ، وـالـعـزـ قدـ يـكونـ شـرـاـ لـهـ ، فـيـكـونـ هـذـاـ الـمـسـكـيـنـ يـعـتـرـضـ عـلـىـ قـدـرـ اللـهـ وـحـكـمـهـ ، وـيـسـعـىـ لـمـاـ فـيـهـ تـلـفـهـ ، وـهـلـاكـهـ .

قال تعالى : (قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعْزِيزُ مَنْ تَشَاءُ وَتَذْلِيلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) آل عمران/ 26 .

ومن تأملـ حـدـيـثـ الـأـقـرـعـ وـالـأـبـرـصـ وـالـأـعـمـىـ : عـلـمـ أـنـ الـقـرـعـ وـالـبـرـصـ كـانـاـ خـيـراـ لـصـاحـبـيـهـماـ منـ الـمـالـ الـذـيـ طـلـبـاهـ ، فـلـمـ طـلـبـ الـأـوـلـ شـعـراـ حـسـنـاـ فـأـعـطـيـهـ ، وـطـلـبـ الثـانـيـ جـلـداـ حـسـنـاـ فـأـعـطـيـهـ ، بلـ وـأـعـطـيـهـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـاـ مـالـاـ وـفـيـراـ : كـانـ ذـلـكـ سـبـباـ فـيـ فـتـنـتـهـمـاـ ، وـسـخـطـ اللـهـ عـلـيـهـمـاـ ، حـيـثـ أـنـكـرـاـ نـعـمـةـ اللـهـ عـلـيـهـمـاـ ، وـبـخـلـاـ بـمـاـ أـعـطـيـاـ مـالـ .

والـحـدـيـثـ روـاهـ البـخـارـيـ (3277) وـمـسـلـمـ (2964) .

3. ثم إن الله تعالى هو المـتفـرـدـ بـالـمـلـكـ ، وـالـخـلـقـ ، وـالـرـزـقـ ، وـلـاـ مـانـعـ لـمـاـ أـعـطـيـ ، وـلـاـ مـعـطـيـ لـمـاـ مـنـعـ ، وـلـمـ يـحـصـلـ الـاعـتـرـاضـ عـلـىـ هـبـةـ الـنـعـمـةـ مـنـ اللـهـ إـلـاـ مـنـ الـمـشـرـكـيـنـ وـإـخـوـانـهـ .

قال ابنـ كـثـيرـ - رـحـمـهـ اللـهـ - تـعـلـيقـاـ عـلـىـ آـيـةـ (قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ) :-

أي : أنت المتصرف في خلقك ، الفعال لما ت يريد ، كما ردّ تبارك وتعالى على من يتحكم عليه في أمره ، حيث قال : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرتيين عظيم) الزخرف / 31 ، قال الله تعالى ردًا عليهم : (أهم يقسمون رحمت ربنا نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) الآية ، الزخرف / 32 ، أي : نحن نتصرف في خلقنا كما نريد ، بلا ممانع ولا مدافع ، ولنا الحكمة ، والحججة في ذلك ، وهكذا نعطي النبوة لمن نريد ، كما قال تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) الأنعام / 124 ، وقال تعالى : (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ولآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) .

”تفسير ابن كثير“ (29 / 2) .

ولما ذكر الله تعالى اعتراض بعض الناس على ملوك آتاه الله بعض خلقه : أرجع الله تعالى الأمر إلى علمه ، وحكمته ، وفضله ، وأن الأمر لا يرجع إلا إليه عز وجل ، وذلك في قوله تعالى : (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَئِنَّ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَرَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيهِ) البقرة / 247 .

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - :

قوله تعالى : (والله يُؤْتِي ملكه من يشاء) أي : يعطي ملكه من يشاء ، على حسب ما تقتضيه حكمته ، كما قال تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيده الخير إنك على كل شيء قادر) آل عمران / 26

قوله تعالى : (والله واسع) أي : ذو سعة في جميع صفاته : واسع في علمه ، وفضله ، وكرمه ، وقدرته ، وقوته ، وإحاطته بكل شيء ، وجميع صفاته وأفعاله .

و (عليم) أي : ذو علم بكل شيء ، ومنه : العلم بمن يستحق أن يكون ملكاً ، أو غيره من الفضل الذي يؤتيه الله سبحانه وتعالى من يشاء .

”تفسير سورة البقرة“ (213 ، 214 / 3) .

4. أن قائل مثل هذه العبارات وقع في الفتنة من حيث يشعر أو لا يشعر ، فالله تعالى جعل الناس بعضهم لبعض فتنـة ، منهم الغني ، ومنهم الفقير ، ومنهم الشريف ، ومنهم الوضيع ، فمن رضي بما قسم الله ، ولم يسخطه : نجا من الفتنة ، ومن اعترض وسخط : فله السخط ، قال تعالى : (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَضْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) الفرقان / من الآية 20 ، وقال تعالى : (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهُؤُلَاءِ مَنْ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ بِالشَّاكِرِينَ) الأنعام / 53 .

قال القرطبي - رحمه الله - :

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِيَغْصِبُ فِتْنَةً أَتَصِرُّونَ) أي : إن الدنيا دار بلاء ، وامتحان ، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنـةً البعض على العموم في جميع الناس ، مؤمن ، وكافر ، فالصحيح فتنـة للمريض ، والغنى فتنـة للفقير ، والفقير الصابر فتنـة للغنى ، ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبـه ؛ فالغنى ممتحن بالفقير ، عليه أن يواسـيه ولا يسـخر منه ، والفقير ممتحن بالغـنى ، عليه لا يحسـده ، ولا يأخذ منه إلا ما أعطـاه ، وأن يصـبر كل واحد منها على الحق ، كما قال الضـاحـاك في معنى (أَتَصِرُّونَ) : أي : على الحق .

وأصحاب البلايا يقولون : لـمْ لـمْ تـغـافـ ؟ والأعمـى يقولـ : لـمْ لـمْ أـجـعـلـ كـالـبـصـيرـ ؟ وهـكـذا صـاحـبـ كلـ آـفـةـ ، والـرسـولـ المـخـصـوصـ بـكـرـامـةـ النـبـوـةـ فـتـنـةـ لـأـشـرـافـ النـاسـ مـنـ الـكـفـارـ فـيـ عـصـرـهـ ، وـكـذـلـكـ الـعـلـمـاءـ ، وـحـكـامـ الـعـدـلـ ، أـلـاـ تـرـىـ إـلـىـ قـوـلـهـمـ (لـوـلـاـ نـزـلـ هـذـاـ الـقـرـآنـ عـلـىـ رـجـلـ مـنـ الـقـرـيـتـيـنـ عـظـيـمـ) الزـخـرـفـ / 31 ، فالـفـتـنـةـ : أـنـ يـحـسـدـ الـمـبـتـلـ الـمـعـافـيـ ، وـيـحـقـرـ الـمـعـافـيـ ، وـالـصـبـرـ : أـنـ يـحـبـسـ كـلـاـهـمـاـ نـفـسـهـ ، هـذـاـ عـنـ الـبـطـرـ ، وـذـاكـ عـنـ الـضـجـرـ . (أَتَصِرُّونَ) مـحـذـوفـ الـجـوابـ ، يـعـنيـ : أـمـ لـاـ تـصـبـرـوـنـ ؟ .

”تفسير القرطبي“ (18 / 13) .

5. أن مثل هذه الكلمات الدارجة على الألسنة فيها سوء ظن بالله تعالى ، وهي فتنـة لم ينجـ منها كثيرـ منـ الناسـ ، فيـظـنـ الواـحـدـ مـنـهـ أـنـ يـسـتحقـ أـكـثـرـ مـاـ قـدـرـ لـهـ ، وـأـنـهـ أـولـىـ بـكـثـرـ الـخـيـرـ وـالـصـرـفـ عـنـ السـوـءـ وـالـشـرـ مـنـ غـيـرـهـ ، وـفـيـ ذـكـرـ ذـلـكـ مـنـ الـاعـتـرـاضـ عـلـىـ قـدـرـ اللـهـ تـعـالـيـ ماـ يـخـلـخـلـ بـهـ الـمـرـءـ رـكـنـاـ مـنـ أـرـكـانـ الـإـيمـانـ ، وـهـوـ الـإـيمـانـ بـالـقـدـرـ شـرـهـ وـخـيـرـهـ ، وـأـنـهـ كـلـهـ مـنـ عـنـدـ اللـهـ ، قـدـرـهـ ، وـكـتـبـهـ ، وـشـاءـهـ ، ثـمـ خـلـقـهـ ، بـحـكـمـتـهـ تـعـالـيـ ، وـعـدـلـهـ .

قال ابن القيم - رحمـهـ اللهـ - :

فـأـكـثـرـ الـخـلـقـ ، بـلـ كـلـهـ ، إـلـاـ مـنـ شـاءـ اللـهـ : يـظـنـونـ بـالـلـهـ غـيـرـ الـحـقـ ظـنـ السـوـءـ ، فـإـنـ غـالـبـ بـنـيـ آـدـمـ يـعـتـقـدـ أـنـهـ مـبـخـوـسـ الـحـقـ ، نـاقـصـ الـحـظـ ، وـأـنـهـ يـسـتـحـقـ فـوـقـ مـاـ أـعـطـاهـ اللـهـ ، وـلـسـانـ حـالـهـ يـقـوـلـ : ظـلـمـنـيـ رـبـيـ ، وـمـنـعـنـيـ مـاـ أـسـتـحـقـهـ ، وـنـفـسـهـ تـشـهـدـ عـلـيـهـ بـذـلـكـ ، وـهـوـ بـلـسـانـهـ يـنـكـرـهـ ، وـلـاـ يـتـجـاسـرـ عـلـىـ التـصـرـيـحـ بـهـ ، وـمـنـ فـتـشـ نـفـسـهـ ، وـتـغـلـلـ فـيـ مـعـرـفـةـ دـفـائـهـ ، وـطـوـايـاـهـ : رـأـيـ ذـلـكـ فـيـهـ كـامـنـاـ كـمـونـ النـارـ فـيـ الرـنـادـ ، فـاقـدـ حـنـادـ مـنـ شـئـتـ : يـنـبـئـكـ شـرـارـهـ عـمـاـ فـيـ زـنـادـهـ ، وـلـوـ فـتـشـتـ مـنـ فـتـشـتـهـ : لـرـأـيـتـ عـنـهـ تـعـثـبـاـ عـلـىـ الـقـدـرـ ، وـمـلـامـهـ لـهـ ، وـاقـتـراـحـاـ عـلـيـهـ خـلـافـ مـاـ جـرـىـ بـهـ ، وـأـنـهـ كـانـ يـنـبـغيـ أـنـ يـكـونـ كـذـاـ وـكـذـاـ ، فـمـسـتـقـلـ ، وـمـسـتـكـثـرـ ، وـفـتـشـ نـفـسـكـ هـلـ أـنـتـ سـالـمـ مـنـ ذـلـكـ ؟ .

فـإـنـ تـنـجـ مـنـهـ تـنـجـ مـنـ ذـيـ عـظـيـمـةـ ... وـإـلـاـ فـإـلـيـ لـاـ إـخـالـكـ نـاجـيـاـ

فـلـيـعـتـنـ الـلـبـيـبـ النـاصـحـ لـنـفـسـهـ بـهـذـاـ الـمـوـضـعـ ، وـلـيـثـبـ إـلـىـ اللـهـ تـعـالـيـ ، وـلـيـسـتـغـفـرـهـ كـلـ وقتـ مـنـ ظـنـهـ بـرـيـهـ ظـنـ السـوـءـ ، وـلـيـظـنـ السـوـءـ بـنـفـسـهـ التيـ هيـ مـأـوىـ كـلـ سـوـءـ ، وـمـنـبـعـ كـلـ شـرـ ، الـمـرـكـبةـ عـلـىـ الجـهـلـ ، وـالـظـلـمـ ، فـهـيـ أـولـىـ بـظـنـ السـوـءـ مـنـ أـحـكـمـ الـحاـكـمـيـنـ ، وـأـعـدـلـ الـعـادـلـيـنـ ، الـرـاحـمـيـنـ ، الـغـنـيـ الـحـمـيدـ ، الـذـيـ لـهـ الـغـنـيـ التـامـ ، وـالـحـمـدـ التـامـ ، وـالـحـكـمـةـ التـامـ ، الـمـنـزـهـ عـنـ كـلـ سـوـءـ فـيـ ذـاتـهـ ، وـصـفـاتـهـ ، وـأـفـعـالـهـ ، وـأـسـمـائـهـ ، فـذـاتـهـ لـهـ الـكـمـالـ الـمـطـلـقـ مـنـ كـلـ وـجـهـ ، وـصـفـاتـهـ كـذـلـكـ ، وـأـفـعـالـهـ كـذـلـكـ ، كـلـهـ حـكـمـةـ ، وـمـصـلـحةـ ، وـرـحـمـةـ ، وـعـدـلـ ، وـأـسـمـاؤـهـ كـلـهـ حـسـنـيـ .

فـلـاـ تـظـئـنـ بـرـبـكـ ظـنـ سـوـءـ ... فـإـنـ اللـهـ أـوـلـىـ بـالـجـمـيـلـ

وَلَا تَظْلِئْ بِتَقْسِيكَ قَطُّ حَيْرًا ... وَكَيْفَ بِظَالِمٍ جَانِ جَهُولٍ

وَقُلْ يَا نَفْسُ مَأْوَى كُلُّ سُوءٍ ... أَيْرَجِي الْخَيْرُ مِنْ مَيْتٍ بَخِيلٍ

وَظْنٌ بِتَقْسِيكَ السُّوَآيِّ تَجْدِهَا ... كَذَاكَ وَخَيْرُهَا كَالْمُسْتَحِيلِ

وَمَا بِكَ مِنْ ثُقَّى فِيهَا وَخَيْرٌ ... فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الْجَلِيلِ

وَأَيْسَرُ بِهَا وَلَا مِنْهَا وَلَكِنْ ... مِنَ الرَّحْمَنِ فَأَشْكُرُ لِلَّدِيلِ

” زاد المعاد في هدي خير العباد ” (3 / 235 ، 236).

وبنصيحة ابن القيم الرائعة نختم كلامنا ، فعلعل كل واحد مثاً أن يفتش نفسه ، ويتأمل في حالها ، ونرجو الله تعالى أن يصلح أحوالنا ، وأن يسدد أقوالنا ، وأعمالنا .

والله أعلم